

# نصوص عادية لا تحمل رياح التغيير

تجليات المنهاج في كتابي اللغة العربية للصفين الرابع والتاسع الأساسيين

مشهور البطران

\* «إن العالم غير العادي، العالم الجريء، العالم النقدي، هو الذي يحطم قضبان ما هو عادي ويفتح النوافذ ليدخل الهواء الطلق».

\* «إن النقد يفقد جدواه إذا افترض أحد الأطراف أنه الأفضل والأكثر تفوقاً».

كارل ر. بوبر

\* \* \*

## مقدمة

إن المحاور المطروحة للنقاش حول هذا المنهاج جديدة بالبحث والدراسة والتحليل، وثمة محوران مهمان أكثر من غيرهما من وجهة نظري، المحور الأول يتعلق بالتقاطع بين دائرة اهتمام الطلاب وما طرحه النصوص الواردة في الكتب المدرسية من قضايا، أما المحور الثاني، فيتعلق بالقيم والاتجاهات والنواحي العاطفية التي تشملها هذه النصوص.

عندما نؤسس لمنهج جديد فإن السؤال الصائب «ما هي النتائج المرجوة من هذا المنهج؟ وهل حاز رضى الأطراف التي تتأثر به وتؤثر فيه؟» أما السؤال الخطأ فهو: «كيف نبرر اختيارنا لهذا المنهاج؟»، عندها تصبح الأفكار دوغماتية الطابع وتتكلس بغلاف عديم الحساسية تجاه النقد والتحليل العميق. لا نريد أن نقع في هذه الدائرة المفرغة ما بين مطرقة النقد الكاشف للعورة فحسب وسندان التبشير الدوغماتي.

فعندما يتم الحديث عن منهاج جديد للغة العربية للصف الرابع الأساسي مثلاً؛ فمن البديهي أن نتوقع أن يشتمل هذا المنهاج على قدر معقول من المضامين والأساليب الجديدة التي تميزه عن التجارب السابقة، استناداً إلى عملية مراكمة تمتد لثلاث تجارب سابقة، وبخاصة أن العالم يشهد ثورة غير مسبوقه على صعيد تصميم المناهج جنباً إلى جنب مع ثورة المعلوماتية التي تندفق عبر وسائط لا حصر لها.

قبل البدء في تناول أي من المحاور المطروحة للنقاش حول هذا المنهاج؛ أرى من المناسب أن أضيء بعض الجوانب الرئيسية فيما يتعلق بتصميم المناهج:

- إن المنهج بمفهومه الحديث يشمل كل الخبرات التي من شأنها بناء منظومة معرفية وسلوكية لدى المتلقي.
- إن المنهج ليس مجرد معلومات تعطى للتلاميذ.
- إن قيمة المعلومات تتحدد بمدى ملامستها لاحتياجات المتعلمين.
- إن المنهج يجب أن يكون متوافقاً مع قضايا المجتمع الحاضرة وتطلعاته المستقبلية.
- وأخيراً؛ إن المنهاج الذي لا يخضع لعملية التقييم المستمر والنقد والتحليل سوف يتقادم حتى يصبح عبئاً وعائقاً في سبيل عملية التقدم الاجتماعي.

كذلك، افترض بدهاء أن كل ما هو خارج دائرة النقد والتحليل عرضة للعطب السريع، ذلك أن أحداً لا يستطيع أن يدعي لنفسه امتلاك الحقيقة كاملة. وضمن هذا الإطار، لا يوجد في الفكر الإنساني ما هو خالد ونهائي، بل تتمايز الأفكار وتتلاحق بغية الاقتراب أكثر من الحقيقة.

يتمحور هذا النص حول عائلة ريفية تتكون من ثلاثة أفراد، أب يعمل في الحقل، وأم تعمل في البيت، بالإضافة إلى ابنهما الوحيد. تقطف الأم باكورة ثمر الحقل من التين وتعطيه لابنها، ولكنه أثر أباه على نفسه فأعطاه الثمرات، والأب بدوره أثر زوجته على نفسه، إلى أن تم توزيع حبات التين بالتساوي بين الثلاثة، وهكذا أصبحت العائلة سعيدة.

على مستوى الشكل؛ يخلو النص من الحبكة المشوقة والأحداث الساخنة، كما أنه فقير إلى العناصر الفنية الكفيلة بشحن المخيلة، الأمر الذي يعيق عملية المتابعة من قبل الطالب.

وفيما يتعلق بالمضمون، يبدو هذا النص يوتوبي الطابع مغرقاً في المثالية إلى حد كبير، فلم يبين لنا كاتب النص أسباب سعادة هذه العائلة، إلا إذا قصد أن هذه السعادة نتيجة اقتسام حبات التين بالتساوي بين أفراد هذه العائلة.

القضية الأخرى اللافتة للنظر في هذا الدرس بالذات أنه جاء مزيفاً للواقع، ذلك أن العائلة الفلسطينية، وبخاصة الريفية هي عائلة ممتدة كثيرة الأفراد، في حين أن النص تحدث عن عائلة تتكون من ثلاثة أفراد فقط. إن انحراف النص عن الواقع من شأنه أن يربك الطالب ويعيق عملية التعلم، وبخاصة في هذه المرحلة العمرية الحساسة.

وما ينطبق على درس العائلة السعيدة ينطبق إلى حد كبير على درس «العمل الشريف» فهو نص تبدو فيه الصنعة واضحة لدرجة يدرك معها الطالب أنه مصمم بطريقة فجأة من أجل غرض بذاته، إذ لم تأت الأحداث بتلقائية وسلاسة كما هو مفترض في أساليب القص. يتحدث هذا الدرس حول فكرة تقديس العمل الشريف، الفكرة جميلة جداً بدون شك، ولكن السياق يوحي إلى العكس تماماً، إذ أن الأعمال الشريفة التي قام بها الأخوة لم تكن صفة أصيلة فيهم، إنما وسيلة للحصول على المكافئة (الجوهرة).

كان من الممكن ترتيب أحداث هذه القصة، بحيث يمارس الأخوة الثلاثة أعمالهم الشريفة دون علم منهم بأمر المجوهرات التي بحوزة الأب، عندها ستكون المكافئة أكبر وقعاً وتأثيراً في نفس الطالب.

أما إذا انتقلنا إلى الدرس الرابع «الطائرة الورقية» فإننا نجد أنفسنا في مواجهة مع السؤال: «أي جديد حمله لنا هذا النص على المستوى المعرفي؟» وبخاصة أن الطائرات الورقية هي لعبة واسعة الانتشار في ربوع فلسطين.

يحق لنا - إذن - أن نتساءل: «أي جديد حمله لنا هذا المنهاج في بعديه المعرفي والسلوكي؟»

للوهلة الأولى يبدو هذا الكتاب كلاسيكي الأداء في تعاطيه مع المواقف التعليمية، وبخاصة إذا ما قورن بالمنهاج الحديثة التي تصمم في دول العالم المتقدم.

\* \* \*

لن أناقش في هذه الورقة الأهداف المعرفية إلا بقدر ما يخدم الهدف، بل سأتناول الأهداف السلوكية وما تضمه وتعلنه من قيم واتجاهات تضمنتها النصوص، كما سأتناول النصوص من حيث مستواها الإبداعي وأبنيتها السردية ومدى قدرتها على تصدير المضامين السلوكية والقيم والاتجاهات إلى المتلقي.

إن النص وعاء يحمل الأهداف المعرفية والسلوكية التي خطط لها في مرحلة التصميم، وفي أغلب الأحيان تكون نتائج الأهداف المعرفية سريعة الظهور؛ ذلك أنها تتجه صوب عناصر المعرفة العلمية من مفاهيم وحقائق وقوانين ونظريات، على عكس الأهداف السلوكية التي تحتاج زمنياً في فترة أطول نسبياً لتبدأ في التجلي والظهور، ويدوم تأثيرها لفترة أطول أيضاً، وهنا تكمن خطورة الأهداف السلوكية، ذلك أنها تتعلق بقيم واتجاهات يستحيل رصدها في غرفة الصف أو على ورقة الامتحان.

ثمة ثلاث مواصفات لا غنى عنها - من وجهة نظري - لكي يكون النص مقبولاً وممتعاً بالحد الأدنى من مواصفات النص الأدبي:

- نص يثير التأمل والدهشة ويفتح آفاق التخيل.
- نص يطرح أسئلة في دائرة استقصائية أكثر مما يجيب عن أسئلة.
- نص يجمع بين التخيلية والعقلانية في آن معاً.

## لغتنا العربية في كتاب الصف الرابع

إن السمة الغالبة على معظم النصوص التي جاءت في هذا الكتاب هي التسطيح إلى حد السذاجة. لقد ظهر ذلك جلياً - أوضح ما يكون - في الدرس الأول: «العائلة السعيدة».

على  
مستوى الشكل؛ يخلو النص  
من الحبكة المشوقة والأحداث  
الساخنة، كما أنه فقير إلى العناصر  
الفنية الكفيلة بشحن المخيلة، الأمر  
الذي يعيق عملية المتابعة من  
قبل الطالب.

إن التقدم المعرفي يتوقف بدرجة كبيرة على قدرتنا على اكتشاف أخطائنا والاستفادة من التجارب السابقة، بهذه الطريقة يتم تجاوز منهج التجربة والخطأ نحو منهج أكثر عقلانية.

## كتاب المطالعة والنصوص - التاسع الأساسي

يمكن تقسيم النصوص الواردة في المنهاج حسب وظيفتها إلى نوعين: نصوص للمناقشة والدراسة والتحليل وعددها تسعة عشر نصاً، وأخرى للقراءة والاستمتاع والإثراء وعددها أيضاً تسعة عشر.

أما من حيث الحداثة فهي نوعان: نصوص من التراث وأخرى معاصرة. والأمر اللافت للنظر في هذا السياق هو طغيان النصوص التراثية من حيث الكم على غيرها من النصوص الحداثوية. ففي القسم الأول يصل الوزن النسبي للنصوص التراثية إلى خمسين بالمئة، في حين يصل إلى ثمانين بالمئة في القسم الثاني، بل إن أربعة نصوص على الأقل أخذت من كتاب واحد هو كتاب المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبهسي.

ولست هنا بصدد البحث في كيفية إقامة الصلة بالتراث، واكتفي بالقول إن هذا الإمعان في الانجرار إلى الماضي ليس له ما يبرره، فهو من شأنه أن يعمي الطالب عن المشاكل الحقيقية التي تواجه مصيره الراهن، ويشوش مفاهيمه تجاه قضايا عصره واهتماماته وتطلعاته.

إن المنهاج الذي لا يلامس هموم الإنسان المعاصرة يفتقد إلى الحد الأدنى من مبررات وجوده، فباستثناء بعض النصوص القليلة، فإن القضايا التي تناولتها هذه النصوص التراثية كانت في مجملها من قبيل الخطاب المستهلك، في الوقت الذي ترخر فيه حياتنا المعاصرة بالكثير من التحديات والقضايا المصيرية من قبيل الديمقراطية، والحريات، ومفهوم الهوية، وقضايا التسليح الدولي، والتسلط، والاحتلال.

إن أي منهاج يجب أن يعكس بدرجة كبيرة هوية المجتمع الذي ينبثق منه، بمعنى أن النصوص التي ي طرحها المنهاج يجب أن تشي بالملامح الثقافية للمجتمع، وفي هذا السياق جاءت النصوص مجانية لهذا التوجه، فباستثناء عبارة: «وزارة التربية والتعليم العالي في دولة فلسطين» التي وردت على غلاف الكتاب، لا يوجد عبارة واحدة في الكتاب تشير إلى فلسطينية المنهاج.

لدى قراءة الدرس سوف نجد أن لا شيء جديداً تضمنه هذا الدرس، وإذا ما افترضنا أن كاتب النص أراد أن يعزز قيمتي «توزيع العمل والمثابرة من أجل الوصول إلى الهدف»، فإنه من دون شك ضل سبيله، ذلك أن هاتين القيمتين ضاعتا في تفاصيل حبكة ضعيفة المستوى.

وعلى صعيد المبنى الحكائي - ليس في هذا النص وحسب، بل في معظم النصوص - يغيب الحوار بين الشخص، وإن حدث - وهذا نادراً - يكون مقحماً بطريقة فجة من قبل الكاتب، الأمر الذي يزعزع المبنى الدرامي للنص. في درس «الطائرة الورقية» جاء:

«اجتمع ثلاثة أصدقاء في أحد أحياء المدينة واتفقوا فيما بينهم على التعاون لصنع طائرة ورقية، وفكروا في مكونات هذه الطائرة، فهي تحتاج إلى الورق، والعصي، والخيوط الرفيعة القوية».

يستمر السرد على هذا النحو بقطعة كلية مع الحوار، في حين كان من اليسير لو أن فكرة (مكونات الطائرة) جاءت على شكل اقتراح من أحد الأصدقاء الثلاثة.

إذا ما انتقلنا إلى درس «الدجاجة المسحورة» نواجه قضية مختلفة، وعلى درجة كبيرة من الأهمية. يحتوي هذا الدرس في سياقه على قصة ميثولوجية، هي: قصة الدجاجة المسحورة التي تبيض كل يوم بيضة من الذهب، ولكن صاحبها طماع فذبحها حتى يحصل على السبيكة الذهبية دفعة واحدة، فاكتشف أن جوف الدجاجة فارغ.

يبدو أن العبرة والقيمة المبتغاة من هذا الدرس هي «أن الطمع ضرر وما نفع» ولكن الخشية هنا أن لا يستطيع الطالب تفكيك العبرة عن السياق، فتترسخ فكرة الدجاجة المسحورة أكثر من القيمة المبتغاة. وثمة سؤال مهم: إلى أي مدى يستطيع طالب الصف الرابع الأساسي أن يتعامل مع الميثولوجيات، بحيث لا يقع في دائرة التغييب؟

\* \* \*

إن هذه المحاور التي طرحتها ما هي إلا إسهام متواضع ودعوة للوقوف والتأمل بغرض المراجعة والتصحيح الذاتي تمهيداً للوصول إلى منهاج يكشط الصدأ عن عقولنا ويفتح لنا طريق التنوير للتغلب على سنوات التجهيل الطويلة.

**إن هذا الإمعان في الانجرار إلى الماضي ليس له ما يبرره، فهو من شأنه أن يعمي الطالب عن المشاكل الحقيقية التي تواجه مصيره الراهن، ويشوش مفاهيمه تجاه قضايا عصره واهتماماته وتطلعاته.**

من العناصر الكفيلة بشحن الطالب بطاقة انفعالية وتوجيه أنظاره نحو نماذج رائعة من الأدب العالمي، فمثلاً كان منهاج اللغة العربية المقرر للصف الثاني عشر يتضمن نصوصاً لنجيب محفوظ، ومحمود سيف الدين الإيراني، ومكسيم غوركي، وغيرهم من قمم الإبداع العربي والعالمية. فماذا حدث لمنهاجنا الفلسطيني ونحن في الألفية الثالثة؟! وكيف سنواجه تحديات الحاضر والمستقبل بهذا المنهاج الذي يفتقر إلى أدنى مبررات وجوده.

**يعاني هذا المنهاج حسبما تجلّى في الكتاب، أيضاً، من فقر مدقع في النصوص التي تعالج موضوع الهوية الوطنية، والاحتلال، وقضايا الصراع العربي الإسرائيلي، إذ لم يرد أي نص يشير إلى بشاعة الاحتلال لا بشكل معلن ولا حتى بشكل مضمّر.**

وردت في الكتاب قصيدتان لشاعرين من فلسطين هما لطفي زغلول وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وفيما عدا ذلك كانت النصوص بعيدة كل البعد عن المشهد الثقافي الفلسطيني على الرغم من غنى هذا المشهد بالقصاصين والروائيين والمسرحيين.

يبدو الأمر الأكثر غرابة - ربما إلى حد الاستهجان - إذا استعرضنا أسماء المبدعين لهذه النصوص، حيث غابت الإبداعات النسوية، وهذا يعكس حقيقة مرة على

الابتلاع هي تغيب الإبداع النسوي والعقلية الذكورية التي تسيطر على صانعي القرار في مؤسساتنا، ولعل نظرة إلى مجموعة المؤلفين لهذا المنهاج نجد أنهم كلهم من الذكور.

يعاني هذا المنهاج حسبما تجلّى في الكتاب، أيضاً، من فقر مدقع في النصوص التي تعالج موضوع الهوية الوطنية، والاحتلال، وقضايا الصراع العربي الإسرائيلي، إذ لم يرد أي نص يشير إلى بشاعة الاحتلال لا بشكل معلن ولا حتى بشكل مضمّر. إن هذا الأمر يتناقض جوهرياً مع أحد أهم الأسس التي يجب أخذها بعين الاعتبار في مرحلة تصميم المناهج، فثمة ثلاثة أسس يجب أن تراعى في تصميم أي منهاج هي الأسس المعرفية والنفسية والفلسفية. إن الأسس الفلسفية للمنهاج تعكس فلسفة المجتمع وطموحه وتطلعاته المستقبلية، ومن خلال تضمين هذه الفلسفة في ثنايا المنهاج يتم تصدير الأهداف الاستراتيجية البعيدة المدى للعملية التربوية.

ولا أظن أن اثنين يختلفان في أن قضية المجتمع الفلسطيني المركزية هي الاحتلال الإسرائيلي. وهنا يبرز السؤال الأهم: كيف يتم تغيب هذه القضية من المنهاج الذي من المفروض أنه صمم من أجل بناء شخصية وطنية متكاملة معرفياً وسلوكياً؟!

يأخذنا هذا الحديث إلى إشكالية - شروط الممول - فهل هذا الممول سيتكفل بطباعة مناهجنا إلى الأبد؟ وهل سنموت من الجوع لو أننا اعتمدنا على أنفسنا؟! أظن أنه من الأفضل لنا أن نموت من الجوع على أن نموت من الجهل.

حتى عهد قريب جداً، كانت المناهج التي تدرس في فلسطين هي مناهج أردنية، وعلى الرغم من النواقص التي كانت تعترى تلك المناهج - وبخاصة في بعديها المعرفي والنفسي - فإنها لم تخل

#### اقتراحات:

- 1- لمّا كان الصف الرابع هو الفئة المستهدفة من هذا المنهاج، فإنني أنصح بإجراء مسح أو استبيان على طلبة الصف الرابع الأساسي، حول مضمون المنهاج، للوقوف على النصوص التي راقت لهم، وتلك التي لم ترق لهم.
- 2- إجراء استبيان للمعلمين الذين درسوا المنهاج، وذلك للوقوف على الصعوبات التي واجهتهم خلال العام الدراسي.
- 3- استبدال نص «الدجاجة المسحورة» بنص آخر أكثر واقعية ولكن بالمضامين نفسها.
- 4- استبدال نصي «اللدائن» و«القمر» بنصوص أدبية.
- 5- مراعاة وجود العنصر النسوي ضمن لجنة المؤلفين.
- 6- تخصيص مساحة أكبر لنصوص من المشهد الثقافي الفلسطيني.
- 7- تضمين المنهاج نصوصاً من إبداعات نسوية فلسطينية وعربية وعالمية.
- 8- تضمين المنهاج نصوصاً من الرواية والمسرحية.
- 9- تخصيص مساحة أكبر لنماذج من الأدب العالمي ذي الطابع الإنساني المساند لقضايا التحرر.
- 10- من الضروري أن يطلع القائمون على تصميم المناهج الفلسطينية على ما يكتب من دراسات نقدية ونقاشات وورش عمل حول المنهاج، ويسترشدون بها.